وادي ريغ من خلال تاريخ محمد العدواني

إعداد الدكتور: علي غنابزية

جامعة الوادي

❁❁❁❁❁❁❁❁❁

مقدمة:

تزخر الأقاليم الصحراوية بتاريخ عريق، غيبته ذاكرة النسيان، وضاعت أحداثه ووقائعه على مر الزمان، بتفريط الأهل والخلان؛ وحينئذ فُسِحَ المجال للثقافة الشعبية أن تنسج حول العمران البشري القصص والأساطير التي تختلط مع الخرافات، ويوجهها الفكر الساذج البسيط، ويعلل أسبابها، وتصير تلك الأخبار الوحيدة في الميدان، لقلة الوثائق وندرتها، أو ضياعها، والسبب هو إحجام سكان الأقاليم عن التدوين والكتابة، نظرا لتفشي ظاهرة الأمية، وانتشار الجهل، واستخفاف المجتمع بالتدوين والتوثيق.

ويعتبر كتاب العدواني من أهم الوثائق التاريخية النادرة التي أرخ بها للصحراء الجزائرية ولاسيما إقليمي وادي سوف، ووادي ريغ، وتعرض لتعمير المنطقة الصحراوية، وذكر بعض الأسباب والملابسات عن السكان وصفاتهم، والقبائل التي أثرت في التطور العمراني، والدول التي حكمت، وخصوصا نشأة الحكم المريني الذي عرف بسلطنة بني جلاب. وكان للعدواني رأي يخالف به روايات أخرى، فضلا عن إشارات عابرة عن الناحية الاقتصادية، وتعامل السكان مع وادي سوف من خلال المراعي، وبيع بعض المواد كالصوف. ودور المرأة في صناعته في تلك الأثناء في المجتمعات المتجاورة، كما أبرز هذا التاريخ دور المرأة في مجتمع وادي ريغ، وتأثيرها في الحياة السياسية، وإدارة الصراع بحكمة حين تدخلت زينب بنت تندلة

الريغية، ورأبت الصدع بين قبيلتي عدوان وطرود بوادي سوف، مما يدل على المكانة التي تبوأتها المرأة رغم بساطة المجتمع، وانتشار الجهل، ولكن الدين كان حاضرا، ومن خلال قيمه تمت تلك المصالحة التاريخية. كما أشار العدواني إلى دور دعاة الطريقة الشابية وتنقلهم إلى وادي ريغ، ولا شك أنهم ساهموا في توسيع حركة بناء المساجد مثلما فعلوا في مجتمع وادي سوف سابقا، وخصوصا خلال القرن السادس عشر الميلادي.

ويبقى تاريخ العدواني ثريا بمعلوماته حول مناطق الجنوب الشرقي الجزائري، وتحتاج أخباره إلى البحث المستفيض، لأن رواياته بمثابة المادة الخام، التي تحفز الباحث إلى النظر فيها مليا، وتمحيص الوقائع وربطها بالوثائق الأخرى، ويمكن الاستفادة منها جميعا للمساهمة في كتابة تاريخ وادي ريغ.

1) التعريف بتاريخ العدواني:

تاريخ العدواني، كتاب في التاريخ العام، ينسب إلى الشيخ محمد العدواني، أحد علماء وادي سوف، وعاش ما بين 1133–1207هـ الموافق 1720–1792م، وهو من أهل القرن 18م، وينسب إليه مسجد الزقم بوادي سوف، وحمل اسمه تبركا من أهل بلدته؛ والشيخ محمد العدواني مؤرخ سوف الأول، ورحالة تعدت شهرته بلاد المغرب قاطبة، وله كتابه المشهور في التاريخ والذي حقق من طرف الدكتور أبو القاسم سعد الله تحت عنوان " **تاريخ العدواني**" وطبع من طرف دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1996، ونظرا للعدد الكبير من نسخ المخطوط، تنازع النساخ في نسب العدواني، فكل جهة وصلها الشيخ العدواني الرحالة إلا ونسبته إلى أرضها، تريد بذلك الشرف، لمكانة العدواني التاريخية، وقد صَدَّرَ المحقق الكتاب في غلافه بالعبارات التالية:

(كتاب في أخبار هجرة واستقرار بعض القبائل العربية مع ذكر الأحوال والتقلبات السياسية والاجتماعية لمنطقة المغرب العربي وأصول بعض المدن والقرى، والعلاقات الروحية بين المشرق والمغرب منذ الفتح الإسلامي).

وقيل في نسبه: هو محمد بن محمد بن عمر القسنطيني، وقيل هو محمد بن محمد بن عمر القسطيلي نسبة إلى قسطيلة ببلاد الجريد التونسية،[1] ولكن النسخة الهامة التي يمتلكها السيد أحمد خراز رفعت نسبته إلى بلدة الزقم، فهو محمد بن محمد بن عمر العدواني الرحماني السوفي اللجي دفين الزقم. [2] وقد قيل إن العدواني في هذه المسألة يشبه العلامة ابن خلدون، فتاريخه المشهور، وتنقله بين الدول، وإقامته في العديد من المدن، جعل تلك الشعوب تتشرف بنسبته إليها.

وقد قيم الدكتور أبو القاسم سعد الله ثقافة العدواني من خلال كتابه فقال: (تُظهر كتابات العدواني ثقافة واسعة بالنسبة لعصره، فهو يحفظ القرآن الكريم ويستدل بآياته في عدة مناسبات، وهو يحفظ الأخبار ويروي الطرائف، وله رصيد لغوي قوي، وأمثال شعبية كثيرة، أما ثقافته الصوفية فتظهر من حديثه عن الشابية وشيوخ القادرية ورحلاته الخيالية التي نسميها اليوم خرافات وكرامات). [3]

وتاريخ محمد العدواني له قيمته لمن درسه بتريث، لأنه يحتوي على مادة خام، وإشارات كتبت بلغة القرن 17 الميلادي، فلا يمكن تجاهل عصر العدواني الذي تداولت الصحراء نسخ تاريخه في وقت غابت الأخبار، ولا شك أن النساخ تصرفوا في معلوماته حذفا وإضافة وتحويرا بما يخدمهم، أو حسب فهمهم للكلمات المنسوخة بالأيدي المتعددة.

2) عمران وسكان وادي ريغ عند العدواني:

([1]) أنظر: مقدمة المحقق، أبو القاسم سعد الله، في تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 17.

([2]) أنظر: مخطوط العدواني، نسخة احمد خراز، غلاف المخطوط، لدي نسخة منه.

([3]) نفسه، ص 21.

وادي ريغ إقليم يقع في الجنوب الشرقي الصحراوي الجزائري، عاصمته مدينة تقرت، وتمتد أراضيه في منخفض مستطيل الشكل، طوله حوالي 160 كلم، يبتدئ من الشمال من عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا عند قرية قوق المحاذية لبلدة عمر، ويتراوح عرضه ما بين 30–40 كلم، وهو يجاور إقليم وادي سوف التاريخي في الناحية الشرقية.[1] وما ورد من أخبار عن هذا الإقليم في كتاب العدواني:

أ) . تسمية وادي ريغ:

ورد في حوار راوي العدواني، ويدعى صفوان، أخبارا وحديثا عن تسمية وادي ريغ، بقوله:

(ثم قلت له: أخبرني عن واد ريغ، لما سمي ريغ؟ وعن مسكنه؟ قال لي: يا سيدي ريغ اسم رجل يقال له باهوت بن شملخ بن كعب بن غاوية، من ولد أندلس بن يافث بن نوح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام) [2] وما ذكره ابن خلدون، أن الاقليم نسبة إلى بني ريغة، وهي قبيلة من بطون مغراوة البربرية. [3]

ب) . عمران وادي ريغ:

ذكر العدواني في تاريخه بعض المواضع في إقليم وادي ريغ، وتعرض إلى سبب

تسميتها، أو قصة تأسيسها، وقد ارتبط بعضها بالجانب الأسطوري، ولا يمكن قبولها في أكثر الأحيان إلا بقرائن تاريخية تؤيدها، ولكن الدارس لهذا التاريخ يجعلها منطلقا، لعلها تفتح له نوافذ جديدة، وتلفت انتباهه على خفايا، تساعده على الوصول

([1]) أنظر: عبد الحميد إبراهيم قادري: المرجع السابق، ص 1.

([2]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 138.

([3]) ابن خلدون،**العبر**، دار الفكر، 200، ج7، ص 33.

إلى الحقيقة التي يبحث عنها. ومن تلك الأخبار يمكن معرفة قدم وعراقة تلك المواقع، ويكفي أن العدواني من أهل القرن 18م:

. بلدة المغير:

ذكر العدواني أن الذي سماها هو عقبة بن نافع أثناء فتحه للمنطقة، فلما مر بها ونام ليلا مع جنده في ترابها، وجدوا في الصباح أن سيوفهم قد أصابها الصدأ بسبب الماء أو الرطوبة، فقال سموها المغير لأنه رأى الأحوال فيها تتغير، قال العدواني في حديثه عن مسيرة عقبة:

(ثم ارتحلوا قاصدين المغير، حتى نزلوا عليه ثم باتوا به، فلما أصبح الله بخير الصباح وجدوا سيوفهم قد لصقها الصداد،قال عقبة: سموا هذا الموضع بالمغير) [1] وإذا صحت الرواية ، تكون المغير من أقدم المواقع بهذا الإقليم، وترجع تسميتها إلى القرن الأول الهجري في حدود 63هـ الموافق 682م.

. بلدة وغلانة:

ذكر العدواني أنها كانت بلدا للرهبان النصارى، ومنها هاجر ثلاثة رهبان إلى شمال سوف، وبنوا قصورا يتعبدون فيها. [2] كما ربطها العدواني بقصة فرعون، وهو الذي بناها بالصخر، فقال العدواني:

(... وصاحب مدينة **وغلان**، وبناها فرعون بالصخر، وجعل أعمدتها من النحاس،

وساق لها نهرا من مجردة[1] أحلى من العسل، وغرس فيها النخيل، وجمع لها الجموع من النواحي، فكان فيها ثلاثمائة زقاق، وفي كل زقاق أربعون حومة، وفي كل حومة

([1]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 299.

([2]) نفسه ص 91.

أربعة آلاف فارس، وجعل لها قوت ستة سنين، ما يفارقها. واحتاجت الناس إليها من جميع الآفاق، وصرف السوق إليها، وبقت على ذلك مدينة قاهرة،[2] حتى تجار مصر يأتونها، وبنى لنفسه قصرا من الزجاج الأخضر، وبنى لفرعون الصغير قصرا له أربعون بيتا، عشرة من الرخام الغالي، وعشرة من الزجاج الأحمر، وعشرة من الزجاج الأبيض، وعشرة من الزجاج الأخضر، وبقي على ذلك مدة مائتين سنة). [3]

وتدخل الأسطورة إبليس، الذي قتل فرعون الأكبر، وشجع تلمسان[4] فغزا وغلانة، ودمرها، وحمل صخرها وأعمدتها، على ظهور الإبل وتركها خالية، وقتل من أهلها ثلاثة وأربعون ألف ثم رجع إلى بلدته تلمسان، ولكن زوجة فرعون ولدت فرعون الأصغر، الذي أخبره إبليس بحال والده، بعد الاحتلام، وبدأ يتنقل، فأتى سوف، ثم استقر مدة عشرين سنة في نفزاوة التونسية، وأخيرا أتى مصر واستوطنها، وحكم القبط وبني إسرائيل من سكانها. [5]

. تمرنة:

تحدث عنها العدواني،(وهي عنده واد ريغ) ، وزمنها، عندما توفي شيخ طرود بالنازية شمال وادي سوف، ويومها كانت العلاقة وطيدة بين سكان سوف ووادي ريغ، فكانوا يلتقون في المراعي، ويومها مات لأهل تمرن رئيسهم، وتسبب ذلك في أزمة قيادة، ثم تمكنوا من تولية رجل يدعى إبراهيم بن عبد القادر، بقي يحكم البلدة إلى آخر حياته. يقول العدواني:

([1]) **نهر مجردة:** نهر في تونس طوله 415 كلم، ينبع من الجزائر، ويروي منطقة جندوبة في الشمال الغربي التونسي، ويصب في خليج تونس.

([2]) **مدينة قاهرة:** حصينة، ومستعصية على الغزاة. ولعل النساخ نسجوا هذا، حتى يكون ملائما لقاهرة المعز الفاطمية في مصر، ولكنها لا تمت بصلة لتاريخ الفراعنة.

([3]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 275.

([4]) **تلمسان:** يوردها العدواني اسم حاكم، واسم مدينته هي تلمسان.

([5]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 277– 278.

(قال الراوي: فمات صاحب تمرنا، وأشكل على أهل واد ريغ من يولوا، فاخترنا رجلا اسمه إبراهيم بن عبد القادر وولیناه، فبقيت الولاية لنا إلى أن مات هذا) [1]

ويشير العدواني إلى أن عاصمة الإقليم هي تمرنة، قال العدواني:

(قال: قلت: أخبرونا أن مدينتهم يقال لها تمرن، وكان واليها من تونس) [2]

والجدير بالذكر أن تمرنة تأسست في القرن الرابع الهجري قبل حي القصبة بـ 40 سنة، وأصل سكانها برابرة عربهم الإسلام وتم اختلاطهم ببعض الوافدين العرب المشارقة قبل أن تنشأ تمرنة الحالية، وشهدت ميلاد عدة قرى اضمحلت وتلخصت في الأخير تحت اسم تمرنة القديمة. بداية من أوتيكا وهي كلمة بربرية بمعنى البلاد القديمة وهي بلاد تقع بين قريتي تمرنه الجديدة وتمرنة القديمة، اضمحلت بعد أن دفنتها الرمال، وهجرها السكان. وعموما تقع تمرنة في الجنوب الشرقي الجزائري، وهي حاليا تابعة لبلدية سيدي عمران ولاية الوادي. بنيت البلدة على هضبة غمرتها في القديم مياه وادي الرتم وجزأتها إلى قسمين، وبنيت وسط واحة من النخيل، وهذا ما ترك أمر ترميمها أو توسيعها مستحيلا حفاظا على الثروة النباتية التي تعتبر مصدر عيش للسكان الفلاحين. [3]

ج) . سكان وادي ريغ وحكامها:

ذكر العدواني أنهم من اللمامشة، هرب أحد عبيدهم حين هاجموهم العدايسة.

قال العدواني:

([1]) نفسه، ص 108.

([2]) نفسه، ص 138.

([3]) **وكيبيديا الموسوعة الحرة.** يوم 2001/10/1.

(قلت له: أخبرني عن أهل واد ريغ، ممن هم؟ قال لي: عبدا للمامشة، هرب حين أخذوهم العدايسي) [1]

ذكر العدواني جزء منها، وهو بلدة تمرنة، وكان حاكم المنطقة من تونس، وتولاها بعدهم العدايسية،[2] ثم الأتراك. وأضاف العدواني:

(قال: قلت: أَخبرُونَا أن مدينتهم يقال لها تمرن، وكان واليها من تونس. قال لي: نعم يا سيدي، وذلك قبل ولاية الترك في قصر طينة[3]، قلت له: أكان قبل الترك ولاية غيرهم؟ قال: نعم، كان أعداس قد ترك فيها أربعين ولدا وأربعين أميرا، وهم الذين يسمون بالعدايسية، ثم خلفت الترك ولايتهم ففكوها إلى صاحب تونس، وبقت تحت صاحب اقسنطينة.) [4]

وبنو أداسة من هوارة، ذكر المؤرخ الفرنسي E Mercier أن بني أداسة أو الأدايسية، أو بنو عداس أو العدايسية، المشهورون، والمعروفون في كمل التراب التونسي وشرق الجزائر، بأنهم قوم دهاة ماكرون مخادعون فاسدون غشاشون، مهربون بحيث أن رجلا واحدا منهم يمكنه خلق قرية خيالية.

وللرد على مرسي، أن أداسة غير عدايسية، وبنو عداس هم الذين كانوا يأتون من تونس إلى قبائل عمالة قسنطينة، ويحترفون مهنة الوشم، وهم يشبهون إلى حد ما

الغجر البوهيميين في تشيكوسلوفاكيا. [5]

([1]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 303.

([2]) **العدايسة:** ذكرالعدواني نسبهم، وهم أبناء العديس بن نون ، بن ماردس، بن مساعد بن نصر، بن أبي بكر؛ ويسرد نسبهم حتى ينتهي به إلى سيدنا عثمان بن عفان، فهم من الأشراف. أنظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 303–304 .

([3]) يعني بلدة قسنطينة.

([4]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 138.

([5]) أنظر: **هوارة وبطونها العربية والأمازيغية**، منتدى الجلفة، يوم 2001/10/1.

3) دولة بني جلاب في وادي ريغ (تقرت وتماسين):

ينتسبون إلى بني مرين، ومؤسس السلطنة هو الشيخ الحاج سليمان بن رجب المريني الجلابي، الذي قدم من فاس المغربية، وكان ثريا، ولما أصابت الناس ذائقة مالية، وخاف الشيخ محمد بن يحي على استغلال السكان من طرف اليهود، فتشاور مع الصالحين والعلماء، ثم عرض على سليمان بن رجب أن يتنازل عن الديون المترتبة على السكان، مقابل توليته على حكم الإقليم، خلفا لبني يوسف الدواودة، فقبل العرض، وحينئذ نشأت إمارة (سلطنه) بني جلاب التي دامت ما بين 1414–1854، وهذه الرواية القريبة إلى الحقيقة، ورويت أسطورة أخرى، ذكرت التنازع بين سكان تقرت، فاتفقوا على تولية أول داخل للبلدة، فدخلها أعرابي من الصحراء يقود قطيعه، فولوه أمرهم، وعرف بالجلابي نسبة للقطيع الذي يعرف بالجلب. ويرى الطاهر بن دومة أن تأسيس السلطنة تم في 837هـ/1531م من طرف احمد الجلابي الذي سلمه المدينة الرجل الصالح سيدي محمد بن يحي، وحينئذ قسم السلطة بين ولديه، فجعل محمد في تقرت، وإبراهيم في تماسين.[1]

وذكر العدواني أن سليمان الجلابي أقرض السكان ولما عجزوا استعبدهم، ثم أعتقهم شفقة ورحمة.

قال العدواني:

([1]) المراجع: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 139–141.الشيخ محمد الطاهر بن دومة: المرجع السابق, ص 9. عبد الحميد إبراهيم قادري: المرجع السابق، ص14– 15. عبد القادر بوباية: " **قيام حكم بني جلاب بوادي ريغ**" ، ضمن مدونة الملتقى التاريخي الثالث المنعقد بمقر متحف المجاهد بتقرت من طرف الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت، أفريل 1998، ص ص 32–36. معاذ عمراني: **أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين**، رسالة ماجستير، مرقونة وغير منشورة، تحت إشراف الدكتورة فاطمة الزهراء قشي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، نوقشت في 9 أفريل 2003، ص ص 26–27.

(قلت له: ما معنى تقرت واتماسين؟ قال لي: يا سيدي، أتى رجل من واد مرين، قد كان مسكنه بفاس...قد كان كل عام يحج إلى بيت الله الحرام، فكان يأتي إلى واد ريغ ليبيع ما فضل من حجه، وهكذا حتى أتوه أهل الواد، [1] فقالوا له: يا سيدنا لو سكنت بقربنا كان خيرا لنا ولك، قال لهم نعم. قال الراوي: فانطلق إلى فاس، وأتى بأهله وماله حتى نزل بالواد. قال الراوي: وكان له امرأتان فجعل إحداهما في تقرت، لأنها موضع خربة، كان فيها على عهد خيار، ووضع الأخرى في اتماسين موضع قرية خربت على عهد ورقل الأكبر، وبنى لهما قصران، وكان له ثمانون عبدا، فجعل مع كل امرأة أربعين عبدا، وكل عبد لا يصل موضع الأخرى، وكان اسم واحدة منهن اسمها بدرة، والأخرى بدرية، وكانت واحدة منهن بنت مولاي سعيد الشريف الذي ضربه بن العافية على أم رأسه وعلم انه لا يعيش، والأخرى بنت فلياش صاحب مكناس، الولي. قلت له: وأي حاجة يصنعونها؟ قال لي: يا سيدي، كل عام يعين أربعين عبدا إلى هذه وعشرون إلى الأخرى كذلك. قال، قلت له: لما سميت تقرت واتماسين بهذا الأسماء؟ قال لي: سيدي، هذا اسم عجمي، ولا أدري، وبقيا على ذلك) [2]

. استعباد سكان واد ريغ وتحريرهم:

(ثم داين أهل الواد، أي واد ريغ، حتى أتاهم عام خمسة وثلاثون وسبعمائة

قحط،[3] أي شر كبير، فصار الرجل يأخذ ابنه أو بنته ويبيعاه له، فاشترى منهما ألفا وخمسمائة نفسا، ثم صار الرجل يأتي بزوجته ويبيعها ويخرجها من رقبته ويشريها

([1]) المقصود به وادي ريغ.

([2]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 139–140.

([3]) ذكر العدواني أن القحط وقع سنة 735هـ وهو تاريخ يوافق 1334، وهو تاريخ بعيد عن نشأة الحكم الجلابي، وما ذكره الطاهر بن دومة هو الأرجح، 1531م، الموافق938هـ، وهو يتماشى مع ما ذكره الحسن الوزان في

منه، حتى تم أبناءهم وبناتهم وأزواجهم، ثم اشترى منهم جميع ما عندهم من النخيل والأثاث والسواني، ولم يكن عندهم يومئذ إلا رقابهم، فصار الرجل يبيع نفسه فاشترى منهم أنفسهم. فلما تم شراؤهم، فقال لهم يوما: يا معشر القوم ما عليكم، غدوة . إن شاء الله . عولت على السفر بكم لكي أبيعكم بحقكم قماش من قماش بحر اسويس. [1] قالوا: أهلا وسهلا، ولا يفك المملوك نفسه من مالكه. فلما كان من الغد، رجوا أن يسافر بهم، فلم يسافر، ثم أتاهم وقال: لا نسافر حتى تبنوا لي مسجدا، فبنوا له مسجدا. وأقام به غاية، ثم جعل له إماما راتبا وصاحب قراية فيه، فلما تم بناؤه قال لهم: إني أريد منكم . يا معشر ممالكي . ما نراعيه عندكم أن أعتقكم لوجه الله تعالى، قالوا: سمعنا وأطعنا. ثم قال: نشهد الله والملائكة ورسله، فاني أعتقكم لوجه الله خالصا، فقبلوا العتقة. ثم قالوا: نحن نولوك على رقابنا أبد الآبدين، قال: قبلت. وتم أمره وعمله على ذلك) [2]

4) . أهمية وادي ريغ الاقتصادية:

كان سكان وادي سوف يتخذونها مرعى لأنعامهم في فصل الربيع، قال العدواني: (قال الراوي: وبقينا في البلاد: الشتاء بأرض النازية، والربيع بواد ريغ، والصيف بالزاب، والخريف بأرض الجريد، وهكذا) [3] وكان سكان سوف يستوردون فسائل النخيل، والصوف الذي تنسج منه نساؤهم الملابس الصوفية، ومما ذكره العدواني: (

وصف إفريقيا، وقد زار تقرت في القرن 16م، ولم يجد حكامها من الجلالبة بل ذكر أنهم من تونس. أنظر: الحسن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2، ص 136. معاذ عمراني، المرجع السابق، ص ص 29–33.

([1]) يعني بذلك انتقاله إلى مصر، وكانت طريق مسيره نحو الحج كمحطة تجارية.

([2]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 140–141.

([3]) نفسه، ص 108.

ونحن نزلنا أرضا خالية ما بين ثلاثة أوطان: الزاب للطعام، والجريد للتمر، ووادي ريغ للصوف، قلت له : أتصنع نساؤكم الصوف؟ قال لي: نعم.) [1]

5 . دور المرأة في مجتمع وادي ريغ:

تمتعت المرأة الريغية بمكانتها، وكان لها دورها الاجتماعي والديني، ولعبت أدوارا سياسية قلما بلغها الرجال في عصرها، ومنهن:

زينب بنت تندلة:

وهي امرأة صالحة، وولية لله عابدة، ذات رأي وحكمة ومشورة، تحسن استقبال ضيوفها، وتكرمهم أحسن إكرام، وتدعو لهم بالرزق الحسن، ومن يعتدي على حرمة دارها، فله الخزي والوبال، ونلمس ذلك في قصة من قصد دارها من سكان وادي سوف، عند لجوئهم إلى بلدتها، والمعتدي منهم يدعى " **غنام**" . كما ورد في خبر العدواني، على لسان الراوي من بني قومه.قال العدواني:

(وبتنا عند الولية الصالحة زينب بت تندلة، ودخلنا بيتها، كلما وجدنا فيها من الطعام والتمر أكلناه. فلما شعرت بنا أتت إلينا مغضبة وقالت: يا قوم! من أخذ لنا شيئا من غير الطعام والتمر فليرده إلي. فردوا لها ما أخذوه منها إلا غنام بقيت عنده سقاء ماء،[2] فلحوا عليه فلم يردها لها. ثم قالت: أما من أخذ مالي ورده إليَّ يجعل الله له رزقا في هذا الواد بحرمتي، ومن أخذ مالي ولم يرده إلي فيجعله خديما لي ولأهل هذا الواد) [3]

وقدمت لهم المرأة الصالحة خطة طريق في الصلح، وتقوم على الأخلاق التالية:

([1]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 147.

([2]) **سقاء الماء:** هي القربة، وهي الآنية الأساسية في البيت، وتعتبر ثروة هامة في وقتها، وترتبط بضمان العيش، فالشراب يكون منها وحدها، وضرورتها في البيت مثل الهواء للإنسان.

([3]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 101.

أولا: العفو عن خصومهم من طرود: والنظر إلى المستقبل، فإن حسن التدبير يجعل أبناءهم منهم، وينتمون إلى قبيلتهم بالتزاوج والمصاهرة، ومما ذكره صفوان في روايته: (قال صفوان: ثم أتينا راجعين بعدما أمرتنا الولية [يعني زينب بنت تندلة] بالرجوع والعفو عمن بقي، فأجبناهم لذلك، ثم قالت لنا: لو تقبلوا كلامي ونصيحتي أن تحملوا بقية الذراري والنساء والشيوخ إلى وطنهم، ويكونوا لكم عونا على عدوكم، لأنهم إذا كبروا لم يعرفوا أحدا غيركم، وإذا لم يعرفوا احد غيركم صاروا منكم، وتزوجوا بناتهم. قالوا هذا هو الرأي. ثم أثنوا راجعين إلى القصور، بعد أن جمعوا الإبل والأسلاب...) [1]

ثانيا: الإحسان في أعمالهم: ولم تودعهم زينب بنت تندلة، إلا بعد نصيحتهم بالتمسك بحبل الإحسان، وربطته بإحسان الله للعبد، وكيف رتبت عملا عن آخر، ففي السياق مثل قول الله تعالى عن أدب المجالس: **(فافسحوا يفسح الله لكم)** [2] وفي المعنى مثل قوله تعالى، واعدا المحسنين بالإحسان، في قوله تعالى: **(وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا)** [3] ومما ورد في كلامها على لسان الراوي في تاريخ العدواني:

(قال الراوي: ثم ودعتهم وقالت لهم: **يا قوم أحسنوا يحسن الله لكم** فاليوم صاروا في حماكم، وانأ المراقبة عليهم، فان قبلتم قولي ونصيحتي فنطلب الله أن يجعل ولاية واد ريغ على يديكم وتكون لكم الحرمة والاحترام ولا يولي عليكم ظالما تخاف منه وتكونوا أرزاقكم ومعيشتكم أكثرها من هذه الدار. قالوا ننكروا الولاية التي تضيق علينا فقالت لهم: اشهدوا علي، لا يجعل واليا ولا أميرا عليكم ولا منكم إلى يوم القيامة. ثم حملوا النساء والصبيان ورجعوا إلى قصور عدوان)[4].

([1]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 102.

([2]) المجادلة الآية 11.

([3]) الكهف الآية 18.

([4]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 102.

ويتضح من هذا النص قدرة المرأة الصالحة في تقديم النصح، وإدارة الصلح، وهي من أفضل الأعمال واجلها في الشريعة الإسلامية.

6) . دور دعاة الشابية في وادي ريغ:

ورد الحديث بإسهاب عن دور أتباع الشابية، وعلماء الطريقة الصوفية ذات الأصل التونسي ولاسيما سيدي عرفة الشابي، وسيدي المسعود، ودورهما في تصحيح العقائد في وادي سوف، والدعوة إلى التوسع في تشييد المساجد، ومازالت تحمل أسماءهم ولاسيما سيدي المسعود الشابي،[1] ودور ابنه علي بن مسعود، الذي ذكر العدواني كيف سار على نهج والده في وادي سوف، ويرجع له الفضل في تشييد بعض مساجد سوف،[2] ورحل لنفس المهمة في وادي ريغ. ومما ورد صراحة في تاريخ العدواني قوله:

(قال الراوي: ثم انتقل قاصدا إلى واد ريغ، تأتي قصته . إن شاء الله.) [3] وهنا توقف تاريخ العدواني ولم يَحْكِ قصة الشابية، وضاع معها تاريخهم ودورهم في الجانب الديني، ولكن النبذة التاريخية التي بسطها حقي محمد السايح التجاني التماسيني في

([1]) **سيدي المسعود:** هو المسعود بن محمد بن الشابي بن عبد اللطيف، ويرتفع نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود، كان رجل علم وتقوى، وقد خرج يدعوا إلى الله في الصحراء، ووصل إلى سوف والتقى بالفضلاء، وتعاون معهم في بناء المساجد، ونشر الخير، وظل يتردد على الصحراء منذ اواخر القرن العاشر الهجري، السابع عشر الميلادي، ولا يستبعد رحيله إلى وادي ريغ لنفس المهمة الدعوية، ونشر آداب الطريقة الشابية. المراجع: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص110–128. إبراهيم العوامر، الصروف، 192–194.

([2]) المساجد التي ساهم في تشييدها علي بن مسعود الشابي، هي مسجد سيدي المسعود الشابي في الوادي، وهو مسجد الوادي العتيق، وآخر في مدينة قمار وهو مسجد سيدي المسعود العتيق، وكلاهما شيدت فيما بين سنتي 1530–1600.

([3]) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 132.

ورقاته، قال:(كان بناء مسجد سيدي عبد الله المغرواي بتماسين سنة 817 هجرية،[1] وذلك على يد محمد بن الحاج الفاسي.) [2]

ومما ذكره عن الأعراب الذين قدموا لوادي ريغ:

(لقد تداولت على هذه الواحة دول حسب وقتها وظرفها: أولا: أعراب من ناحية الجريد بالمملكة التونسية أتوا من صحراء قابس ومن طرابلس يقصدون المصيف في الرمال وبصحبتهم الشيخ خليفة وابنه الشيخ مسعود والشيخ بوناب ونشروا الدين نشرا جميلا وإلى الآن يقال للمسجد الجامع لاجتماع الناس به، وتأسس جامع سيدي المسعود بوادي سوف والذين أسسوه من الشابية وهم من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل.) [3]

وبما أن التحقيق السابق يجعل الحكم الجلابي في حدود 1530، فإن الجلابي الأول أمرهم ببناء المسجد، وربما يكون الجامع الكبير بحي مستاوة بتقرت، [4] وهو الزمن الذي شهد حركة الشابيين حسب رواية العدواني.

الخاتمة:

([1]) وهو يوافق سنة 1414م .

([2]) **المعمار الصحراوي:** نظرا للعلاقة الروحية، والتواصل الاجتماعي للمهاجرين من بلاد المغرب، فقد نقلوا معهم الطابع المغربي في البناء، ويشيد بذلك الرحالة المغربي العياشي عند زيارته لتماسين، في القرن السابع عشر الميلادي،(1663م) فيذكر في رحلته "**ماء الموائد** " قائلا: (ورحلنا إلى تماسين وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل، وأميرها ابن عم أمراء تقرت وهو كالمستقل في بلده وأجزل ضيافة الحجاج، وفي مسجدهم صومعة وثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو مائة درجة على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة وثمانمائة" أنظر: مولاي بلحميسي: **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981،ص 89. الشيخ محمد الطاهر بن دومة: المرجع السابق، ص14 .

([3]) أنظر: سالمي مصطفى: **الدر المصفى**، جمع وتحقيق، علي غنابزية، مخطوط، ص 33.

([4]) أنظر: معاذ عمراني المرجع السابق، ص 21. عبد الحميد قادري، المرجع السابق، ص 48.

لقد تناول تاريخ العدواني شذرات متفرقة من تاريخ وادي ريغ، ولكن التركيب التاريخي، والترتيب والملاءمة بين العناصر المتشابهة، يجعل تاريخ وادي ريغ في كتاب العدواني واضحا، وما يمكن ذكره من نتائج، يستأنس بها الباحث، ويستند إليها الدارس، ويبدأ التحقيق التاريخ منطلقه ، مما وصل إليه هذا الرصد الأولي:

. يحدد تاريخ العدواني بشكل تقريبي زمن بعض الحوادث التاريخية، وتعمير القرى القديمة، ومن خلاله يمكن مقارنتها مع غيرها من الشواهد التاريخية.

. يعلمنا تاريخ العدواني كيف نهتم بالتسميات، وأصول السكان والقبائل التي مرت بوادي ريغ، ومنها ريغة، واللمامشة، والعدايسة، وبنو جلاب، وغيرهم من العناصر السكانية القديمة التي تركت أثرها في المنطقة.

. يلفت الانتباه إلى المناطق القديمة، ويبرز عراقتها في التاريخ؛ مثل بلدة المغير التي أظهر أن لها صلة بتاريخ عقبة بن نافع في القرن الأول الهجري. وأخبار زينب بنت تندلة ، وفيها دلالة على قدم بلدة تندلة، وقدم وادي ريغ، ووجود السكان بها في حدود 790–800هجرية.

. أن وادي ريغ شهدت تأسيس إمارة بني جلاب، وفيه دليل عن حضارة عريقة، في الوقت الذي فضل فيه سكان وادي سوف الحرية خارج سلطة المخزن، ولم يوافقوا على طلب الولية الصالحة بالدعاء لهم بالسلطان الحاكم، لأنهم روا فيه تكبيل لسلطتهم، ورصدا لحركتهم.

. كانت وادي ريغ مزدهرة اقتصاديا بوجود المراعي، وتصدير الصوف، والقحط الذي ذكرته الروايات كان عارضا فقط.

. تبوأت المرأة مكانتها الدينية والسياسية، وهذا من أهم الملامح الحضارية للمنطقة، وكذلك مدى اهتمامهم بالدين، ولو من قبل المرأة، فضلا عن تشييد المساجد، ولا يمكن مقارنة ذلك التدين بما هو الآن، فلكل عصر قيمته العلمية التربوية.

وعموما يبقى كتاب العدواني مصدرا تاريخيا في حاجة إلى تقليب معلوماته، واستخراج فوائده التاريخية، ورصد القرائن المتعددة التي تساعد على نفض الغبار عن تاريخ الجنوب الشرقي الجزائري بأكمله.